السفر الأخير

مأساة واقعية لأسرة كردية

محمد زكي رمضان يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

سورية ـ القحطانية
ص .ب ٣١

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

إهـــداء

إلى اليد الخشنة والأنامل المتشققّة ..

إلى الجسم الذي عانى والروح التي قاست ..

إلى العين التي سهرت وحرست ..

إلى الجبين الندي والوجه السمح المغضّن ..

إلى كهل الستين في روح الشباب ..

إلى موضع الإجلال والتقدير والاحترام ..

إلى والدي الكريم رمضان يوسف

أهدي هذا الكتاب

المؤلف

مقدمة قصيرة

عزيزي القارىء :

هذه قصة واقعية.. جرت أحداثها في شمال كردستان بتركيا، في قرية تسمى (كَفْري قُل) أي: الصخرة المثقوبة، التابعة لقضاء أرزروم.. في زمن عصيب أيام سفر برلك المشهورة (الحرب العالمية الأولى)..

وقد سمعها والدي من أهل تلك المنطقة عندما كان يخدم في الجيش التركي هناك، سردها عليّ بالكردية، وقمت أنا بترجمتها وصياغتها إلى العربية .. ولم أزد فيها سوى بعض الشخصيات التي لابد منها لربط أحداث القصة ونسج وقائعها على الوجه الروائي المطلوب..

وبطلا القصة المحوريان :

* (نَنَاس).. ويعني بالعربية: غير معروف!
* و(كُلْبُهار).. وتعني: وردة الربيع!

إنها قصة أسرة من المجتمع الكردي ....

تميز أفرادها بقلوب رقيقة جداً .. لا تعرف الاعتدال في عواطفها.. فإذا أحبّت هاجت وماجت.. وأخذ الحبّ منها كل مأخذ.. حتى إذا ذاقت كأس الفراق لم تتحمل لواعجه لتقضي حزناً وكمداً!

وأحببت ألا تضيع هذه القصة المأساوية بين طيات الزمن.

وأن تكون عزاء للقلوب الرقيقة .. الصافية .. التي لا تتحمل!

وبعد هذا .. فالقصة من تراث الأدب الكردي .. الذي ينبغي أن يحفظ ويعتنى به وبأمثاله ..

ولا أطيل على القارىء .. فلعله يستعجل معرفة نموذج بشري عُرف برقة متناهية .. وصفاء عجيب!

آملاً أن أقدم قريباً مجموعة قصصية للقراء.. تهتم بأدب الفقراء.. والله الموفق ...

محمد زكي

دمشق فى ١٤٠٧/١/٢٥هـ

الصـــخرة المثقوبـــة !

قـريـة جميلة بهية، تحيط بها جبال منقوشة بالأشجار المتناثرة هنا وهـنـاك... و يـنـابـيـع غـزيـرة تـنـحدر في جداول، وتسقي بساتين الأهالي المليئـة بأشجار الفاكهة..

الـمُـلا سـيف الدين، أحب الشخصيات عند أهل القرية، فهو إمامهم، ومؤذنهم، ومعلمهم، ومرجعهم.

والمختـار عـبـد الـعـزيـز، حليم، رؤوف بـأهل القرية، وخاصة الفقراء منهم.

والـطبيب العجوز قهرمان، كهل في الثمانينات، محدودب الظهر، لـكـنـه نـشـيـط، سريع البديهة، قوي الذاكرة، ورث الطب أباً عن جـد، يـقـضـي سـاعـات مـن النهـار فـي الجبال المحيطة بالقرية بين الأعشاب والنباتات، ليقطف مايرى فيه دواء لمرضاه..

والـتـاجـر الأمين مـحـمـد علي، يجمع في المواسم محاصيل القرية مـن صوف وجبن ومواشي وزبيب وقمح وشعير، ليأخذها إلى المدينة و يبيعها..

أما الشيخ محمد، والد نَنَاس، فهو بنّاء ماهر، ميسور الحال.. الناس في القرية يعملون طوال النهار، دون كلل أوملل... فهذا يحرث، وآخر يزرع، وثالث يغرس، ورابع يقطع... وهناك من يسقي، أو يرعى، أو يحصد... مواسم كثيرة في السنة الواحدة...

والنساء لهن نصيب كبير في العمل... فهن يساعدن أزواجهن و يعينهن بما استطعن إلى ذلك سبيلاً... وترىٰ أفواجاً منهن بعد صلاة الظهر يتجهن إلى الحقول، ومعهن الزاد إلى أزواجهن وأولادهن، ليعملن مايستطعنه هناك، ثم يعدن إلى شؤون بيوتهن...

أما هيلانة والشيخ محمد، فقد كانا أكثرالناس عملاً وإقبالاً على الدنيا... ترى ما السر؟ هل هو شعور منها بالسعادة لأنها يعملان لابنها الوحيد العز يز المدلل نَنَاس؟

هيلانة نشيطة، تعمل من الفجر حتى الضحىٰ، ثم تتجه نحو المرعى إلى حيث نناس بين زملائه يرعى الغنم، فتحلب الغنم وتعود إلى البيت وترتب مابقي من أعمال، وتطمئن على بناتها الأربع، ثم تجهز الزاد للشيخ محمد، وتخرج قبل نساء القر ية، متجهة إلى زوجها، وتعمل معه حتى وقت الغداء... ثم يأكلان... و يتبادلان الأحاديث المسلية..

وكثيراً ماكان يقول لها الشيخ محمد:

ــ لا تتعبي نفسك كثيراً، فأنا بحاجة إليك، لا تعملي كثيراً،

كوني محافظة على نضارتك وشبابك وإلا أحرجتني أن أتزوج فتاة ثانية جميلة حسناء!

لكن هيلانة ترد عليه وهي واثقة من نفسها:

ـ ياشيخ محمد افعل ما يطيب لك، وتزوج بمن تريد، فأنا لا أبالي، إن ننـاس على أبواب الشباب، وسيكون خير عون لي إن شاء الله، وهل تطمع المرأة بأكثر من ولد مطيع؟

و يطلق الشيخ محمد ضحكة مفاجئـة و يقول لها:

ـ أكملي ياهيلانة ولا تخجلي، قولي: وزوجاً محباً صالحاً!

لكن هيلانة تدير وجهها بدلال وتقول :

ـ ما أثقل مزاحك يامحمد!

فيرد الشيخ محمد... وهو لايزال مبتسماً :

ـ ومن قال لك إنني أمزح ؟ !

وسرعان ماكان الشيخ يواسي هيلانة و يطيب من خاطرها قبل أن يثير غضبها و يقول:

ـ أنّى تكون لي زوجة كأم ننـاس، بخلقها وجمالها وحنانها؟ إنك زوجة عظيمة، بحر من الأدب، لا يطيب لي عيش إلا قربك... كفي عن العمل وابقي إلى جنب أولادك، فأنا أعمل

ليل نهار، كوني ذلك السراج الذي ينير الدار... ابقي شجرة مظللة، وبسمة على شفاه الأسرة... أنا ياهيلانة مكتف باستقبالك لي عند المساء ساعة العودة من العمل، إنك تفرِّجين عني بذلك تعب النهار وتهونين علي شقاء العمل... كفاك تعباً وشقاء.

وترد هيلانة بحنان :

ــ ليس بعد يازوجي العزيز، سأبقى أعمل معك حتى يترعرع ننـاس ويحلّ محلي، ولا تظنـنّ أنـني أتعب من هذه الأعمال، فسعادتي أعلى من أن يوهنها شيء!

* * *

ننـاس في الثانية عشرة من عمره، يعمل و يلعب ماطاب له.. فهو يرعى الغنم مع زملائــه، ويمضي إلى الصيد، و يعمل مع والده في الحقل، وله جولات مع الفروسية، حيث يركب فرس والده... وهو يزور خاله لقمان في (أرزروم) مرافقاً تاجر القرية محمد علي. وكان قهرمان الطبيب يحبه كثيراً و يصطحبه إلى الجبال... وعندما كان يرافق والده إلى المضافة يختار الجلوس إلى جانب المختار، وإذا ذهب معه إلى المسجد، يقترب من الإمام.. ويحب لو كان مكانه!

لقد كان محبوباً من قبل أهل القرية جميعاً، فهو رغم حركاته ونشاطه المستمر، ماكان يزعج أحداً، ولا يضّر زرعاً، ولا يؤذي حقلاً... وكان فوق كل هذا مؤدباً رزيناً حيياً.

وكان والداه يخافان عليه كثيراً، ولا تطمئن قلوبهما إلا بجواره... و يبذلان كل غال ونفيس لإسعاده... حتى غدا عزيزاً مدللاً كأنه ابن أمير!

وقد وهبه الله إلى جانب هذا عقلاً ذكياً وفكراً نيراً، فقد كان أذكى تلاميذ الإمام سيف الدين.

وتمضي الأيام مريحة كنسمات الربيع، و يتزن تفكير نناس... بدأ يفكر بكل ماحوله من جديد... و يشعر بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه، و يسمع من أستاذه سيف الدين خطبة الجمعة في بداية أشهر الحج... ويحث القادرين من أهل القرية على الحج إلى بيت الله... الركن الخامس من أركان الإسلام. و يستوعب نناس كل مايقوله الإمام، وتجد كلماته في قلبه كل إصغاء وتفكير، و يتجه بعد الصلاة إلى بيت التاجر محمد علي و يقول له:

ــ إذا سافرت قريباً إلى (أرزروم) فلا تنسى أن تذكرني، لقد اشتقت إلى خالي كثيراً.

و يبتسم التاجر قائلاً:
ــ لقد عزمت على السفر غداً إن شاء الله.

و يتهلّل وجه نناس فرحاً و يقول:
حسناً، سنذهب سوية.

و يذهب نناس إلى البيت قائلاً لوالده:

ــ لقد اشتقت إلى خالي، سأسافر غداً مع العم محمد علي لز يارته، فهل أنت موافق ياأبي؟

يقول الأب:

ــ لايوجد أي مانع ياولدي، اعمل ما يطيب لك.

و يتجه نحو أمه قائلاً:
ــ وأنت ياأمي؟

وتقول الأم :
ــ كان الله معك يابني، وأعادك إلينا سالماً.

وفي الصباح، اتجه نناس والتاجر إلى (أرزروم)... وخيالات لا تنتهي... تداعب مخيلة نناس، الذي بدا وكأنه يفكر بأشياء كثيرة... دفعة واحدة!

وعندما حلّ به المطاف عند خاله الذي استقبله بحرارة بالغة، وجه نناس الحديث إلى الحج والمشاعر المقدسة، وتفاجأ عندما قال خاله:

ــ لقد نويت الحج هذا العام.
وتنبسط أسار ير نناس لهذا الخبر المفرح، و بدت نواجذه عن بسمة عر يضة ارتسمت على فمه... ثم يكمل خاله الحديث و يقول:

ـ ولولا أخواتك الصغار، وعمل والدك الذي لا ينتهي، لاصطحبت أمك معي.

و يتنهّد نناس، و يرفع عينيه إلى خالة قائلاً:

ـ الحق معك ياخالي، إن أمي لا تستطيع أن تترك بناتها... ولكن ما رأيك أن تقنع والدي ليأتي معك؟

ويجيب الخال بعد صمت قصير :

ـ ياولدي، الطريق بعيد، و يستغرق ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً، ولا أظنه يستطيع أن يترك أرضه كل هذه المدة، إن الأرض كالعيال يانناس، إذا اعتنيت بها عاشت، وإذا تركتها ماتت.

لكن نناس يرد بجزم :

ـ أنا ياخالي سأحل محله، وسأعمل قدر استطاعتي في الأرض.

و يردّ عليه خاله :

ـ لاطاقة لك بها يانناس.

و يعود نناس إلى حزمه قائلاً :

ـ سأبذل كل جهدي ياخالي.

و بعد فترة صمت قصيرة، يبتسم الخال، و يقترب من نناس، مقبلاً جبينه وقائلاً:

ـ حسناً ياولدي، غداً إن شاء الله سنسافر معاً إلى القرية،

وسنتكلم في هذا الموضوع لوالدك، وأدعو الله تعالى أن يقدر الخير لنا جميعاً.

* * *

وفي بيت الشيخ محمد يقلبون الأمر على وجوهه، فلا يرون منفذاً لسفر أحد الأبوين... فلا هو يستطيع ترك حقله وبستانه أو تركهما في عهدة نناس الذي لايقوى على العمل كله ولا خبرة له بإدارتها، ولاهي تقدر على ترك بناتها الصغار وأعمال البيت. ثم إنها في حِلٍّ من الذهاب، فهما غير قادرين على الحج، ولولا صحبة لقمان لما فكرا في ذلك.

وسرعان ما تبرق فكرة إلى عقل الأم، فتستأذن من أخيها للحديث مع زوجها على انفراد.. ثم تهمس في أذنه قائلة:

ــ مارأيك ياشيخ محمد أن يذهب نناس مع خاله إلى الحج؟

وينتفض الشيخ قائلاً في خوف :

ــ لا ياهيلانة، الطريق شاق وطويل، وجسمه لا يتحمل.

لكنها تجيبه بسرعة :

ــ ياشيخ محمد دعنا نغتنم الفرصة ونبعثه مع أخي، فأنت تعرف كم يحب نناس، وسيهتم به أكثر مما يهتم بنفسه، دعه يذهب الآن قبل أن يصبح مثلنا مسؤولاً صاحب أرض وأولاد، فيصعب عليه الذهاب... ماذا قلت؟

و يردّ الشيخ الوقور :

ــ وماذا سأقول بعد أن أقنعتني، إنها خير فرصة، فليكن الله معه.

ويعودان إلى الجلسة.

وقبل أن يتجها بالحديث إلى لقمان، بادراهما بقوله:

ــ عندي فكرة!

فقال الجميع :

ــ وماهي؟

قال في ابتسامة :

ــ مارأيكم أن يصحبني نناس إلى الحج، وهو أفضل مما لوكبر فتضيق عليه الفرص كما ضاقت عليكم؟

و ينظر الأبوان إلى بعضهما البعض، و يستغربان من هذا التوافق العجيب! وقالا:

ــ كنا نتكلم فيما قلته الآن... اتفقنا إذن!

ويهتز بدن نناس لما سمع، إذ كيف يحج قبل والده؟ فيقول بلهجة متهدجة حزينة:

ــ أنا أعترض ياأبي، أرجوك أن تذهب أنت.

و يربت الوالد على كتف ابنه و يقول في هدوء وحنان:

ــ سأذهب ياولدي بإذن الله، اذهب أنت مع خالك، وغداً إن شاء الله عندما تقوى على إدارة البيت والأرض، سأذهب أنا وأمك، تاركين كل شيء في عهدتك.

وتترقرق الدموع في عيني الابن البار و يقول:

ــ حسناً ياوالدي، كما تريد، وأرجو من الله أن يحقق آمالنا، و يتقبل أعمالنا.

و يقول الأب :

ــ سأوصي عمك محمد علي بأن يشتري لك فرساً وما يلزمك في الطريق.

لكن الخال لقمان يتدخل بجد و يقول:

ــ لاياشيخ محمد، ليس لي أهل سوى أختي هيلانة، ونناس ولدي كما هو ولدك، ونفقته كلها علي ذهاباً وإياباً.

وتفرح هيلانة بكلام شقيقها قائلة :

ــ جزاك الله خيراً يا أخي و بورك في أموالك.

و يقول الشيخ محمد بتأثر بالغ :

ــ أدامكم الله إخوة لبعضكم البعض، لقد تفضلت علينا

وغمرتنا بخيراتك منذ أن حظيتُ بهيلانة، أرجو من الله أن يعينني على مكافأتك ورد جميلك..

وأرجو يالقمان أن تدبروا أموركم.. وسافروا دون أن تخبروني، أو حتى تودعوني، كان الله معكم وأعانكم في سفركم، وادعوا لي هناك.

و يتحرك الشيخ محمد من مكانه بهدوء و بقلب كسير، و يتجه بخطوات متعثرة إلى الحقل وهو يحدث نفسه:

رباه ماذا أفعل، نناس لم يتحرك من هنا بعد، ومع ذلك فأنا في شوق غامر إلى الجلوس معه والحديث إليه.. كيف سأصبر على فراقه ثلاثة أشهر، وهل سنلتقي ثانية؟ لماذا سمحتِ له بالسفر؟ لِمَ وافقت؟ لا.. لا.. وكيف أمنعه من الحج.. اذهب ياولدي اذهب، رافقتك السلامة.. سأفوّض أمري إلى الله، وسأبقى أنتظرك وأصبر على فراقك قدر استطاعتي.. وحتى آخر رمق ..سافر ياولدي، ولكن إياك أن تنسى والدك وتطيل البعد عنه.. لعلك لم تعرف بعد القلب الذي يحمله والدك بين جنبيه كم يرفرف وكم يضطرب.. لقد أمسى رقيقاً رقة الزهر الوليد.. ولقد بات أسير حبكم.. ولم يعد يطيق تحمل الأعباء كما كان، والصبر على أحزان الزمان.

و يودع نناس والخال لقمان الأهل والأصحاب..

و ينظر نناس بعينين دامعتين إلى أمه قائلاً:

ــ أمي.. أين والدي!

وتردّ الأم في صوت متهدّج:
ــ لِمَ تسأل عنه ياولدي؟ ألم تودعه؟ إن أباك ذو قلب رقيق ولا يستطيع أن يملك دموعه وأعصابه في مواقف كهذه..

وتتوجس الأم خيفة على ابنها، ولا تملك دموعها وقلقها، فتتجه إلى شقيقها وتقول له بحزن وأسى:

ــ أخي لقمان، أنت تعلم أن نناس ولدنا الوحيد، ولو لم تكن أعزَّ الناس لما بعثناه معك، إنه سيبقى أمانة عندك، فكن حريصاً عليه.

و ينظر لقمان إلى شقيقته و يقول لها في ثقة:
ــ سيكون نناس داخل القلب والعين وكفى.. وغداً عندما يعود إن شاء الله ستعرفين ذلك.

* * *

وتسير قافلة الحجاج على بركة الله.. ولا شيء يشغل لقمان عن ابن أخته.. كما كان موضع عناية القافلة جميعها، وأولهم أميرها..

وتشرف القافلة على المواقيت.. حدود الحرم.. و يغتسل نناس